

## غزوة أُحُد

### أخذت قريش تستعد لغزوة أُحُد

كانت الفكرة التي تعمل لها قريش منذ غزوة بدر، أن تستجمع كل قوتها، لتضرب الضربة القاصمة التي تقضي بها على محمد وصحبه، وتفرغ بعدها من أمر دعوته ودينه. فأخذت تعد لذلك العدة، وترصد الأموال، وتعي القوي، وتجمع السلاح؛ وبعثت رسلها فيمن حولها من قبائل العرب تستنصرهم، وتستعين بهم على تمكين هذه الضربة. وكان من هؤلاء الرسل أبو عزة الشاعر، الذي منَّ عليه رسول الله ﷺ في إيسار بدر فأطلقه بلا فداء، وأخذ عليه العهد والميثاق ألا يظاهر عليه أحداً ولا يكثر عليه جمعاً؛ فنقض العهد والميثاق، وذهب مع الذاهبين إلى كنانة وتامة، يمرض على قتال رسول الله ﷺ ويكثر عليه.

وهكذا ظلت قريش طوال عامها تبذل من أموالها، وتجمع من أنصارها، وتعد من قوتها، حتى بلغت من ذلك ما أرادت،

وعدت في أتم أهبة وأكمل استعداد. فلم يكد يستدير العام حتى خرجت في جيش لجب من رجالها، ومن والها من رجال تهامة وكنانة، ومن حالفها من الأحابيش من بنى المصطلق وبنى الهون بن خزيمة، وتوجهت إلى المدينة في حماسة الموتور وسورة المغيظ المحقق، لتضرب الضربة القاضية. وأبت نساء قريش إلا أن يكن مع الجيش، يحمسن الرجال ويثرن الحمية؛ فخرج منهن من ربات الخدور نحو أربع عشرة امرأة، على رأسهن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان بن حرب.

### أبو عامر الأوسى

وخرج مع الجيش أبو عامر الأوسى، وهو رجل من رجال الأوس، كان «مقاوماً للنبي ومباعداً له ومنكراً لنبوته» وكان قبل ذلك مترهباً يزعم أنه ينتظر النبي المبعوث، ويذكر للناس كثيراً من صفاته، ويقول لهم: إنه قد قرب خروجه. فلما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، واتضح صفاته للأنصار واتبعوه، حسده أبو عامر وأنكر نبوته. وكان رئيساً في الأوس كعبد الله بن أبي في الخزرج، فكل منها حسد النبي، صلى الله عليه وسلم؛ لكن عبد الله بن أبي دخل في الإسلام ظاهراً،

وهذا خرج من الإسلام كافراً مباحداً<sup>(١)</sup>؛ وخرج معه خمسون من شيعته من شباب الأوس وغلبائهم، فأقام في مكة مناصراً لقريش، محرصاً لها على قتال رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما عازمت قريش على الخروج إلى أحد، منّاها أبو عامر أن يخذل لها قومه الأوس عن رسول الله، وأن يخرجهم من صفوف المسلمين إلى صفوف المشركين إذا التقى الجمعان. وكان في ذلك معتمداً على ما كان له من سابق المكانة في قومه، معتقداً أنه بهذه المكانة يستطيع أن يحدث ما يشاء من التفريق في صفوف المسلمين. وكان يظن أنه يكفي لذلك أن يظهر لهم عند اللقاء، وأن يُسمعهم صوته فيستجيبوا له، حتى لقد كان يقول لقريش في يقين الواثق المطمئن: «لو قدمتُ على قومي لم يختلف عليكم منهم رجلان؛ وهؤلاء معي نفر من قومي».

### خرجت قريش في ثلاثة آلاف

وفي أوائل شهر شوال من السنة الثانية للهجرة، خرج الجيش الجرار من مكة، يقوده أبو سفيان بن حرب، ويحمل لواءه طلحة بن أبي طلحة، وعلى ميمنته خالد بن الوليد، وعلى يسرته عكرمة بن أبي جهل، وعلى رجّالته صفوان بن أمية..

(١) السيرة النبوية للذجلان.

ثلاثة آلاف مقاتل في أكمل استعداد وأحسن تعبئة، من بينهم مائتان من الفرسان المدربين على ظهور الخيل، ومبعمائة من الدراعين المحصنين بالزُرد والدروع الواقية، يحملهم عدد وفير من الركائب، ويتبعهم حشد كبير من العبيد والغلمان يقضون حوائجهم ويحرسون متاعهم. وكان مع العبيد عبد حبشي اسمه «وحشى»، وكان يجيد الرماية بالحرايب على طريقة الحبشة، فأغراه سيده جُبَيْر بن مُطْعِم بقتل حمزة بن عبد المطلب، عم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقال له: «إن أنت قتلت حمزة عم محمد فانت عتيق»؛ وكذلك أغرته به هند بنت عتبة ووعدته على قتله خيراً كثيراً. وكان حمزة قد قُتِلَ في وقعة بدر طُعَيْمَةَ بن عدى عمّ جبير، وعتبة بن ربيعة أبا هند.

### خطة قريش

وكانت قريش - فيما يبدو - قد خرجت على خطة موضوعة، هي أن تفاجئ المسلمين في عُقْرِ دارهم قبل أن يستعدوا؛ فإذا أخفقت المفاجأة وعلم المسلمون بخروجها فاستعدوا لها، فالخطة إذن هي التخذيل والتضيق بين صفوف المسلمين عند اللقاء؛ فإذا أخفقت كذلك خطة التخذيل والتحم الفريقان، فالخطة هي الفتك برسول الله ﷺ ثم براءوس أصحابه

من المهاجرين، كما فتك المسلمون بروعوسهم في وقعة بدر.

من أجل ذلك كتمت قريش أمرها على المسلمين، وخرجت تواصل السير في سر حتى نزلت بوادي أحد؛ على نحو خمسة أميال من المدينة. ولولا أن العباس بن عبد المطلب كتب إلى رسول الله ﷺ بمخرج قريش هذا، لأطبق الجيش على المدينة في غفلة من أهلها؛ فقد ذكر الرواة أن العباس كتب كتاباً إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يخبره بنجر قريش وبما أعدت له من الرجال والعتاد، ويحث بكتابه هذا مع رجل من بنى غفار، فواصل السير به حتى بلغ المدينة في ثلاث ليال. فلما بلغها علم أن رسول الله في قباء، فانطلق إليه فسلمه الكتاب، فدفعه رسول الله إلى أبي بن كعب فقرأه عليه، فاستكتمه الخبر. ثم دخل على سعد بن الربيع فأخبره خبر الكتاب، فقال سعد: «والله إني لأرجو أن يكون في ذلك خير». وأرجف اليهود والمنافقون بأمر الكتاب فشاع الخبر في الناس؛ وهذا ما كانت تخشاه قريش.

روى الواقدي عن عبد الله بن عمرو بن أبي حكمة الأسلمي قال: «لما أصبح أبو سفيان قال: أحلف بالله أنهم جاءوا محمداً فخبروه مسيرتنا، وحذروه وأخبروه بعددنا؛ فهم الآن

يلزمون صياصيهم<sup>(١)</sup>، فما إن نُصيب منهم شيئاً في وجهنا. فقال صفوان: إن لم يُصَحِّروا لنا<sup>(٢)</sup> عمدنا إلى نخل الأوس والخزرج فقطعناه، فتركناهم ولا أموال لهم فلا يُجْتَبِرُونَهَا أَبَداً؛ وإن أصحروا لنا فعددنا أكثر من عددهم، وسلاحنا أكثر من سلاحهم، ولنا خيل ولا خيل معهم، ونحن نقاتل على وتر<sup>(٣)</sup> عندهم ولا وتر لهم عندنا».

### الرسول يتبادل الرأي مع أصحابه أين يلقون العدو

وبعث رسول الله ﷺ عينه يستطلعون له خبر القوم، فجاءوا إليه فأخبروه بمنزهم من وادي أحد، وحزروا<sup>(٤)</sup> له أعدادهم وعتادهم. وكان المشركون قد أطلقوا خيولهم وجمالهم في مزارع المدينة، فجعلت تأكل الزرع والشجر حتى أوشكت أن تدخل المدينة؛ وبنات الخطر جائئاً على الأبواب، وغدا الأمر أعجل من أن يقبل التسوية، وصار من الواجب على المسلمين أن يأخذوا حذرهم ويستعدوا؛ وحُرست المدينة كلها طول الليل، فبات وجوه المسلمين من أهلها بالمسجد وعليهم السلاح، خوفاً على النبي، صلى الله عليه وسلم. فلما أصبحوا جمع النبي أهل الرأي من أصحابه، وجعلوا يتشاورون كيف يَلْقَوْنَ عدوهم.

(١) صاصيم: حصونهم.

(٣) وتر: ثار.

(٢) إن لم يَجْرُوا إلينا في فضاء الصحراء. (٤) حزروا: قدروها على وجه التقريب.

روى الواقدي أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال لأصحابه: «أشيروا عليّ». . . فقام عبد الله بن أبي فقال: «يا رسول الله، كنا في الجاهلية نقاتل فيها، ونجعل النساء والذّراريّ في هذه الصيّاصي، ونجعل معهم الحجارة. . . ونشبك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية، وترمي المرأة والصبي من فوق الصيّاصي والأطام، ونقاتل بأسيفنا في السكك. . . يا رسول الله، إن مدينتنا عذراء ما فُضّت علينا قط، وما خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا، وما دخل علينا قط إلا أصبناه. . . فدعهم يا رسول الله، فإنهم إن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن رجعوا رجعوا خائبين مغلوبين لم ينالوا خيراً. . . يا رسول الله، أظعني في هذا الأمر، واعلم أني ورثت هذا الرأي من أكابر قومي وأهل الرأي منهم، فهم كانوا أهل الرأي والتجربة».

وكان رأى رسول الله ﷺ مع رأى ابن أبي، وكان ذلك رأى الأكابر من أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «امكثوا في المدينة، واجعلوا النساء والذّراري في الأطام؛ فإن دخلوا علينا قاتلناهم في الأزقة فنحن أعلم بها منهم، ورّموا من فوق الصيّاصي والأطام».

فقال فتیان أحداث لم يشهدوا بدرأ، ورجبوا في الشهادة وأحبوا لقاء العدو: «أخرج بنا يا رسول الله إلى عدونا»..!

وقال رجال من أهل السن وأهل النية<sup>(١)</sup>: «إننا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم جنباً عن لقائهم، فيكون هذا جرأة منهم علينا. وقد كنت يوم بدر في ثلاثمائة فقطرك الله عليهم؛ ونحن اليوم بشر كثير، وقد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به، فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا»..

وقال مالك بن سنان: «يا رسول الله، نحن بين إحدى الحسينين، إما يظفرنا الله بهم فهذا الذي نريد، والأخرى - يا رسول الله - يرزقنا الله بها الشهادة.. والله - يا رسول الله - ما أبالي أيهما كان.. إن كلا لفيه خيراً!..»

فقال حمزة بن عبد المطلب: «والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارجاً من المدينة»..!

وقال النعمان بن مالك: «يا رسول الله، لم تحرمنا الجنة؟ فوالله الذي لا إله إلا هو لأدخلنها!» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بم؟» قال: «إني امرؤ أحب الله ورسوله، ولا أفر يوم الزحف»..!

(١) أهل النية الحسنة والضائر الخالصة.

وقال إياس بن أوس : « لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون : حصرنا محمداً في صياصي يثرب وأطامها، فتكون هذه جرأة لقريش علينا، وقد وَطِئُوا سَعَفَنَا، فإذا لم نَذْبُ عن غرسنا لم يزرع ».

وقام خيشمة - أبو سعد بن خيشمة - فقال : « .. لقد أخطأتني وقعة بدر وقد كنت عليها حريصاً.. لقد بلغ من حرصي أن ساهمت ابني في الخروج، فخرج سهمه فرزق الشهادة، وقد كنت حريصاً على الشهادة.. وقد رأيت ابني البارحة في النوم في أحسن صورة، يسرح في ثمار الجنة وأنهارها، وهو يقول : الحق بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً. وقد - والله يا رسول الله - أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة ! وقد كبرت سني ورق عظمي، وأحببت لقاء ربي؛ فادع الله - يا رسول الله - أن يرزقني الشهادة، ومرافقة سعد في الجنة ».. !

## الرسول ينزل على رأى أصحابه

في الخروج ثم يصمم عليه

ورأى رسول الله ﷺ أن الخروج هو الرغبة الغالبة. وأن كثرة الناس تدعو إليه، فصلى بهم الجمعة، ثم وعظهم وأمرهم

بالجد والجهاد، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا؛ ففرح الناس بالشخص إلى عدوهم، ولكن كثيراً منهم كرهوا ذلك الخرج، لما رأوا في وجه رسول الله من الكراهة له. وأخذ الناس يتأهبون للقتال فليسون دروعهم وسلاحهم، ويتوافدون على مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما كان العصر كان الناس قد تجمعوا واحتشدوا، فصلى بهم صلاة العصر، وأمر أن يُرفع النساء والأولاد في الأطم والحصون؛ ثم دخل بيته ليلبس لامة الحرب<sup>(١)</sup>، والناس في خارج البيت يتناقشون ويتجادلون في أمرهم، ولا يزال فريق منهم يرون أن البقاء هو الأصوب، وأن الناس قد استكروها رسول الله ﷺ على الخروج، فعزم عليه وهو له كاره؛ وجاء سعد بن معاذ وأسيّد بن حُضَيْر فقالا: «قلتم لرسول الله ما قلتم واستكروهم على الخروج، والأمر ينزل عليه من السماء. فرثوا الأمر إليه، فما أمركم فافعلوه، وما رأيتم له فيه هوى أو رأياً فأطيعوه».

فبيناهم على ذلك إذ خرج رسول الله ﷺ وقد لبس لامة. فقال الذين كانوا يلحون في الخروج: يا رسول الله ما كان لنا أن نخالفك، فاصنع ما بدا لك. فقال: «قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، ولا ينبغي لنبى إذا لبس لامة

(١) اللامة: عدة الحرب.

أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه، وامتضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم».

### خرج الرسول في ألف مقاتل

وعقد رسول الله ﷺ ألوياً ثلاثة؛ فدفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير، ودفع لواء الخزرج إلى الحباب بن المنذر، ودفع لواء المهاجرين إلى مُضْعَب بن عُمَيْر. ثم دعا بفرسه فركبه، وخرج في ألف من أصحابه فيهم مائة دارع<sup>(١)</sup>، والناس عن يمينه وشماله، والسعدان يعدوان أمامه: سعد بن عباد، وسعد بن معاذ؛ وكان ذلك يوم الجمعة لست خَلَوْنَ من شوال، بعد أن أمّر على المدينة ابن أم مكتوم يصلى بالناس.

ومضى رسول الله ﷺ حتى أتى مكاناً يقال له «الشَّيْخَيْن»، فعسكر به، ثم استعرض الجيش فرد من استصغره من جنوده. وكان فيمن رده رسول الله ﷺ من هؤلاء الصغار، رافع بن خديج وسمرة بن جُنْدَب. فقبل لرسول الله: إن رافعاً يحسن الرماية؛ فأجازه. فبكى سمرة بن جندب وقال: أجاز رافعاً وردني مع أني أصرعه! فسمع بذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأمرهما أن يتصارعا، فكان الغالب سمرة، فأجازه هو الآخر.

(١) الدراع: لابس الدرع.

## انخذل عنه ابن أبي بثلث الجيش

وبات رسول الله ﷺ ليلته تلك بالشيوخين، واستعمل على حرس الجيش محمد بن مسلمة، وعلى حرسه هو ذكوان بن قيس. فلما كان من السحر سار رسول الله بالجيش حتى بلغ «الشوط»، وهو بستان بين المدينة وأحد. وهناك انشق ثلث الجيش على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فرجع عبد الله ابن أبي بثلثمائة من أصحابه وهو يقول: "أطاع الغلمان وعصا، فعلام نقتل أنفسنا هاهنا؟" فجعل عبد الله بن عمرو ابن حرام يحاول أن يشيهم عن عزمهم هذا، ويناشدهم الله ألا يشقوا عصا الجماعة، وألا يخذلوا قومهم ونيهم في حضرة العدو؛ فيقولون له متهمين: "لو نعلم قتالا لاتبعناكم!"

وقد أحدثت هذه الفعلة الشنيعة خلخلة عظيمة في بناء الجيش، وزلزلة شديدة في نفوس المسلمين، حتى لقد همت بنو حارثة من الخزرج وبنو سلمة من الأوس أن تفعلوا كما فعل أصحاب ابن أبي؛ ولكن الله عصمهم بإيمانهم، فعادوا إلى صفوف الجماعة، وساروا مع الجيش كما كانوا يسرون.

## الرسول يعي أصحابه ويوصي الرماة ألا يبرحوا مواضعهم

ومضى رسول الله ﷺ حتى وصل إلى أحد « وهو جبل كثير المسالك والشعاب، تقطعه عدة أودية، ويدور دورة واسعة في مواجهة السهل الضيق الذي وقفت عنده قريش. كما أن تعرجات الأرض جعلت في المنحدره فجوات تشبه الحفر، تصلح للاختفاء في الحرب الدفاعية لقذف النبال»<sup>(١)</sup>. فنزل رسول الله ﷺ في شعب على عُدوة الوادي<sup>(٢)</sup>. إلى جانب تل مشرف يقال له: «جبل عينين»؛ وهناك أخذ يصف أصحابه ويعيهم للقتال، فجعل ظهورهم إلى الجبل بحيث يحمون به من خلفهم، وجعل وجوههم إلى المدينة بحيث يستقبلون الوادي ويشرفون عليه من أعلاه؛ وجعل خمسين من الرماة على جبل عينين، وأمر عليهم عبدالله بن جبير. وأمرهم أن يحموا ظهور المسلمين عند القتال، وألا يكتفوا العدو من اقتحام هذا الحصن، وألا يبرحوا مكانهم هذا سواء أكان النصر للمسلمين أم عليهم؛ ثم علمهم أن ينضحوا<sup>(٣)</sup> الخيل كلما أقبلت نحوهم بالنبل، وأكد الوصية عليهم ألا يغادروا مواضعهم وإن رأوا

(١) محمد القائد. (٢) عُدوة الوادي: جانبه. (٣) ينضحوا: يرموا.

أصحابهم تتخطفهم الطير.. فلما انتهى صلى الله عليه وسلم من تعديل الصفوف وإعداد المواضع، خطب في الناس يحرضهم على القتال ويحثهم على الصبر، وأمرهم ألا يبدؤوا بقتال حتى يؤاذنهم.

«وبينا كان رسول الله منهمكاً في صف جنوده، ظهر القرشيون في السهل المنبسط تحت التل، وصار الجيشان وجهاً لوجه»<sup>(١)</sup> وظهرت نساء قريش يمشين بين الصفوف، ويضربن بالدفوف، وينشدن الأناشيد، تحريضاً على القتال وإثارة للحمية بين الرجال.

### قريش تحاول التخذيل قبل الهجوم

فلما التقى الجمعان بدأ أبو سفيان خطة التخذيل بين الأنصار والمهاجرين، فنادى: "يا معشر الأوس والخزرج، خلُّوا بيننا وبين بني عمنا وننصرف عنكم"، فذهب نداؤه صرخة في الفضاء. فأعقبه أبو عامر الراهب فبرز بين الصفوف ينادى قومه الأوس: "ياللأوس، إني إني" ! فما كان جواب قومه إلا اللعن والطرود والرجم بالحجارة، حتى ولى وهو خزيان يقول لقريش: "لقد أصاب قومي بعدى شر". وأخفقت خطة التخذيل كما

(١) بوردلي.

أخفقت خطة المفاجأة، فلم يبق من القتال مفر.

”وهنا حاولت قريش أن تطوّق المسلمين وتضم عليهم جناحيها، بمحركة النفاف سريعة؛ فتحرك لواء عكرمة من الميسرة، يريد أن يدور حول عسكرهم فلم يستطع؛ فحاول ذلك خالد من اليمين، فأمطره الرماة وابلا من النبال، فارتدت الخيل على أعقابها مسرعة، فعاد المشركون إلى أماكنهم كما كانوا في أول المعركة“<sup>(١)</sup>.

### المسلمون ينتصرون في أول جولة

وبدأ القتال بالمبارزة، فخرج من صفوف المشركين رجل يطلب المبارزة، فبرز له الزبير بن العوام فقتله: فسر رسول الله ﷺ وكبر، فكبر المسلمون وشدوا على أعدائهم وهم يتصايحون صيحة الحرب: «أمت.. أمت»..! فهجم عليّ بن أبي طالب على حامل لوائهم طلحة بن أبي طلحة فقتله؛ فأخذ اللواء أخوه عثمان، فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فقتله؛ فأخذ اللواء أخوهما أبو سعيد فرماه سعد بن أبي وقاصر بسهم فقتله فتناوب اللواء بعده أربعة من أولاد طلحة، وكلهم يُقتلون واحداً بعد واحد؛ فحمل اللواء غلام لهم يقال له: «صوّاب»، فقتل

(١) عمدة القائد.

كذلك؛ وسقط اللواء على الأرض، فأخذ المشركون بذلك أخذًا شديدًا، وانكسرت شوكتهم وانفجرت صفوفهم؛ فحمل المسلمون عليهم حملة صادقة، وأمعنوا فيهم ضربًا بالسيوف وطعنًا بالرمح ورميًا بالسهم، فانكشفوا وولّوا الأدبار، وجعلت نساؤهم تصيح وتولول، وأخذن يتسابقن في الهرب والفرار من الأسر، مشمّرات عن سيقانهن وخلخيلهن. وتبع المسلمون أعداءهم يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا، حتى أبعدهم عن العسكر؛ ثم وقعوا على الغنائم والأسلاب يجمعونها وينتهبونها، وهم مطمئنون إلى أن ظهورهم لا تزال محمية برماثهم.

### الرماة يخلون مواقعهم فينقلب النصر إلى هزيمة

أما الرماة فقد خيل لهم أن المعركة قد انتهت وأن الهزيمة قد تمت، وخشوا أن يسبقهم إخوانهم في جمع الغنائم، فقال بعضهم لبعض: "ما بقاؤنا هنا وقد هزم الله العدو؟ هؤلاء إخوانكم يغمّون، فادخلوا فاغنموا مع إخوانكم". فجعل أميرهم عبد الله يذكرهم وصية رسول الله ﷺ، ويحذرهم عاقبة الخلاف والعصيان، ولكنهم لم يستجيبوا له، وتأولوا قول رسول الله، واندفعوا إلى العسكر ينتهبون ويجمعون الغنائم، وتركوا أميرهم في نفر من أصحابه لا يجاوزن العشرة، فانكشف بذلك الحصن

الذي كان يحمي ظهور المسلمين.

وكان خالد بن الوليد يتقهقر وعينه إلى التل لا تفارقه. فلما رأى الرماة يتركون مواقعهم، انقلب راجعاً في دورة واسعة، متخذاً من الأراضي المستورة درياً وطريقاً له؛ وجاء في أعقابه عكرمة بلوائه، فتسللوا فوق الجبل، وأزاحوا الرماة الباقين من أماكنهم، واقتحموا خطوط المسلمين من الخلف<sup>(١)</sup> وجعلوا يتنادون بشعارهم: "يا للعزى، ياهبل!" فأقبل المشركون بعد إدبارهم. وأخذت عمرة بنت علقمة الحارثية اللواء فرفعته، فجعلوا يلوثون به. وفوجئ المسلمون بأعدائهم قد حاصروهم وأوجعوا فيهم قتلاً ذريعاً؛ فاضطرب أمرهم وانتقضت صفوفهم، وجعلوا يقاومون على غير نظام، ويقاتلون على غير شعار، حتى قتل بعضهم بعضاً وهم لا يشعرون.

### صرخة مذهلة هلع لها المسلمون وتضعضوا

وفي وسط هذه الدهشة البالغة صرخ صارخ في الناس: "إن محمداً قد قُتِلَ!.. فأخذ المسلمون بهذه الصرخة وزلزلوا لها زلزالاً شديداً، ودب في صفوفهم الفشل، وسرى في روحهم التخاذل، فتفرقوا طرائق قِداً، منهم من أمعن في الفرار

(١) محمد القائد.

لا يلوى على شيء، ومنهم من ثبت وكل همه أن يدافع عن نفسه أو يقاتل حتى يقتل، ومنهم من أذهلته المفاجأة فألقى بيديه واستسلم للهزيمة، ومنهم من أخذته الحيرة فلم يدر ماذا يفعل.

كل ذلك والرسول ﷺ من ورائهم يدعوهم ويصيح بهم :  
«إلى عباد الله..! إلى عباد الله..! إلى يا فلان..! إلى يا فلان..! أنا رسول الله..!» وهم مُصعدون<sup>(١)</sup> لا يلبثون على أحد، معنون في الفرار لا يسمعون دعاء ولا يجيبون نداء، هائمون على وجوههم لشدة ما أصابهم من الدهش والعجلة والخوف. وانتهر الشيطان هذه الفرصة، فجعل يوسوس في القلوب الواهنة ويستزل النفوس الضعيفة، حتى قال بعض المسلمين : "علام نقاتل إذا كان محمد قد قتل؟ فارجعوا إلى قومكم يؤمنوكم"؛ وحتى ظن آخرون أنها النهاية، وأنها الساعة الفاصلة بين الإسلام والكفر، وقالوا كما حكى عنهم القرآن الكريم : ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَا﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) مصعدون : معنون في الفرار.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٤.

## الرسول يثبت في وجه العدو ومعه نفر من أصحابه يبايعونه على الموت

أما رسول الله فقد ثبت في وجه العدو وقاتله قتالاً شديداً، فظل يرمى بالنبل حتى فنى نبله وانكسرت سيئة قوسه وانقطع وتره، ثم ظل يرمى بالحجارة حتى وقع لِسْقُهُ<sup>(١)</sup>. وثبت معه نفر من أصحابه - قيل إنهم دون العشرة، وقيل إنهم فوق العشرة - فبايعوه على الموت، وأحاطوا به يصدون عنه هجمات العدو، الذين أحذقوا به من كل ناحية، وشدوا عليه يريدون أن يقتلوه.. فما زال هؤلاء النفر يذودون عنه، ويقاتلون دونه، ويتلقون عنه ضربات العدو، حتى استطاعوا أن يحولوا بينهم وبينه.

وقد أبلى هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ﷺ في الدفاع عنه أحسن البلاء، وامتاز فريق منهم في دفاعه بالصدق والشجاعة، فقد قاتل طلحة بن عبيد الله عنه قتالاً شديداً، وصار يذود بالسيف من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ويدور حوله يُتْرَسُ بنفسه دونه، والسيوف تغشاه، والنبل يأتيه من كل ناحية، فلم يزل جُنَّةً<sup>(٢)</sup> لرسول الله ﷺ حتى

(١) لسقه: لجنه.

(٢) جنة: رقاية.

انكشف المشركون عنه، فكان أعظم الناس غناء عن رسول الله يومئذ؛ فجعل صلى الله عليه وسلم يقول: «قد أوجب طلحة!»  
أى: أوجب لنفسه الجنة بصدق دفاعه عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وكان قتماس بن عثمان بن الشريد المخزومي لا يرمى رسول الله ﷺ ببصره ميمناً ولا شمالاً إلا رآه في ذلك الوجه يذود بسيفه، حتى عُشي<sup>(١)</sup> رسول الله، فترس بنفسه دونه<sup>(٢)</sup> حتى قتل رحمه الله، فذلك قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ما وجدت لشماس شبيهاً إلا الجنة».

وكان أبو طلحة رامياً شديد الرمي، فنثر كنانته بين يدي رسول الله ﷺ وصار يرمى عنه، وجعل رسول الله كلما مر به أحد من أصحابه معه كنانة يقول له: «انثرها لأبي طلحة»، وكلما رمى أبو طلحة سهماً نظر رسول الله ﷺ من ورائه ليرى موقع السهم، فيقول له أبو طلحة: «ياني الله، بأبي أنت وأمي! لا تنظرُ يصيبك سهم من سهام القوم.. نحري دون نحرك، ووجهي لوجهك فداء!»

وترس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله، صلى الله عليه

(١) أحاط به العدو.

(٢) فترس: جعل نفسه ترساً بينه وبين العدو.

وسلم، فجعل النبل يقع في ظهره وهو منحني عليه، حتى كثر فيه النبل.

ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله ﷺ فجعل رسول الله يناوله النبل وهو يقول: « ارم فداك أبي وأمي »! حتى إنه لناوله السهم ماله نصل فيقول له: « ارم به »، فيرمى.

ودافعت عن رسول الله ﷺ أم عُمارة، وهي نسيبة بنت كعب المازنية، وكانت تسقى الناس يوم أحد. فلما رأت رسول الله قد أحيط به وانهمز عنه الناس، وضعت سقاءها وأخذت سيفاً. فجعلت تقاتل أشد القتال، وإنما لحاجزة ثوبها على وسطها، حتى جرحت ثلاثة عشر جرحاً، وظل على عاتقها من هذه الجراح جرح أجوف له غور، أصابها به ابن قتيبة. وقد سُمع رسول الله ﷺ يقول يومئذ: « ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا أنا أراها تدافع دوني ».

وكان الحباب بن المنذر يحوش المشركين كما تحاش الغنم. واشتملوا عليه حتى قيل: قد قتل، ثم برز والسيف في يده وقد افترقوا عنه، وجعل يحمل على فرقة منهم وإنهم ليهربون منه.

وقام زياد بن السكن في نفر من الأنصار، فقاتلوا دون رسول الله ﷺ رجلاً ثم رجلاً، وهم يقتلون دونه، حتى كان

آخرهم زياد، فقاتل حتى أثبتته الجراح، فوسَّده رسول الله ﷺ قدمه حتى مات.

ومات مصعب بن عمير دون رسول الله ﷺ وهو يتلقى عنه ضربة قد سُددت إليه.. قتله ابن قُتَيْبة وهو يحسبه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فذهب يذيع بذلك بين المشركين.

وقد مات في ذلك اليوم دون رسول الله ﷺ خلق كثير، كلهم يَفديه بنفسه، ويحول بينه وبين العدو حتى يصرع.. روى الواقدي عن سفيان بن عيينة قال: لقد أصيب مع رسول الله يوم أحد نحو من ثلاثين، كلهم يحمي حتى يتقدم بين يديه ثم يقول: "وجهي لوجهك الفداء، ونفسي لنفسك الفداء، وعليك سلام الله غير مُودَّع"..!

### كان هم قريش أن تتخلص من رسول الله في هذه المعركة

وكان أربعة من قريش قد تعاهدوا وتعاهدوا على قتل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعرفهم المشركون بذلك، وهم عبد الله بن شهاب، وعتبة بن أبي وقاص، وعمرو بن قُتَيْبة، وأبي ابن خلف. فأما عبد الله بن شهاب فقد شج رسول الله ﷺ في جبهته، حتى سال الدم على وجهه فأخضل لحيته؛ وأما عتبة

ابن أبي وقاص فقد أصاب شفته السفلى وكسر رِباعيته<sup>(١)</sup> اليمنى؛  
وأما عمرو بن قنينة فقد أصاب وجنته حتى دخلت فيها حلقتان  
من حَلَقِ الْمُغْفَرِ<sup>(٢)</sup>، ثم ضربه بالسيف على عاتقه، فوقع في حفرة  
هناك فُجِحِشت ركبته، فأخذ بيده على بن أبي طالب، ورفع  
طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً؛ وقد ظل رسول الله ﷺ  
يجد ألم هذه الضربة على عاتقه شهراً. وأما أبي بن خلف فقد  
شد على رسول الله وهو يقول: "يا كذاب، أين تفر؟" فطعنه  
رسول الله ﷺ بحربة في عنقه، ثم قال على فرسه وهو يخور خُور  
الثور، ثم مات في الطريق وهم عائدون إلى مكة.

ثم عرف المسلمون أن رسول الله ﷺ لا يزال حياً،  
فأحاطوا به حتى كشفوا عنه العدو. وكان أول من عرف رسول  
الله ﷺ كعب بن مالك. قال: "عرفت عينيه تَزْهَران من  
تحت المغفر، فناديت بأعلى صوت: يا معشر المسلمين.. أيشروا  
هذا رسول الله، صلى الله عليه وسلم..! فأشار إلي رسول  
الله: أن أنصت".

وفاءت إلى رسول الله ﷺ فئة من المسلمين فنهضوا به إلى  
الشعب، فاحتفى به مع من كان يجتمى هناك من أصحابه.

(١) الرباعية: السن التي تجاور الناب.

(٢) المغفر: قناع من الحديد يوضع على الوجه.

ونهب صلى الله عليه وسلم إلى صخرة من الجبل ليعلوها؛ فلم يستطع لكثرة ما نَزَفَ من دمه، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها.

### نساء قريش يمثلن بالقتلى

وظن المشركون أنهم قد انتقموا ليوم بدر، وشقوا نفوسهم بمقتل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فاكتفوا بذلك مغنًا، وأخذت المعركة بعد ذلك تهادأ وتمدت وتمدت حرارتها، فأحاز المشركون إلى معسكرهم، وشغلوا بدفن قتلاهم. وأخذت نساؤهم يمثلن بالقتلى من المسلمين، فوجدن آذانهم وأنوفهم، ويتخذن منها قلائد وخلاخيل. ومثلت هند بنت عتبة بحمزة عم رسول الله أفطع تمثيل، فلم يكفها أن جَدَعَت أنفه وأذنيه حتى بَقَرَت بطنه وأخرجت كبده، فجعلت تَقْضِمُهَا بأسنانها وتأكلها أكل المغِيزِ المحقَّق، فلما لم تستطع أن تُسَيِّغَهَا لَفَّظَتَهَا.

ومشى أبو سفيان يتفقد القتلى من المسلمين ويتعسف وجوههم؛ فلما وجد حمزة صريعًا بينهم، جعل يضرب في شدقه بكعب الرمح ويقول: "ذُقْ عَقَقٌ"<sup>(١)</sup>..! فرآه الحليّس سيد الأحابيش، فأنكر عليه أن يفعل ذلك بابن عمه وهو ميت؛

(١) عقق: مبالغة من العقوق وهو مجازاة الأهل وعقوقهم.

فاستحيا أبو سفيان من هذه الزلة، وطلب إليه أن يكتبها عليه ولا يذيعها في الناس.

### أبو سفيان يبحث عن رسول الله

وكان همّ أبي سفيان أن يجد رسول الله ﷺ في القتلى؛ فلما لم يجده بينهم أخذ الشك يخامره في أنهم قتلوه، فذهب إلى ناحية الشعب الذي اعتصم به رسول الله وأصحابه، وجعل ينادى: "أفيكم محمد..؟ أفيكم ابن أبي قحافة..؟ أفيكم ابن الخطاب..؟" فنهى رسول الله ﷺ أصحابه أن يجيبوه.. فلما لم يجبه أحد أقبل على أصحابه من المشركين فقال لهم: "أما هؤلاء فقد كُفيتُمهم".. لما ملك عمر نفسه أن قال: "كذبت - والله - يا عدو الله..! قد أبق الله لك ما يسوءك..!" فقال أبو سفيان - وكأنما أراد أن يعتذر عما فعلت نساء قريش بقتلى المسلمين -: "إنكم ستجدون في القوم مُثَلَّةً<sup>(١)</sup>، لم أمر بها ولم تسؤني". ثم جعل يرتجز قائلا: "نَعِمَتْ فَعَال: إن الحرب سجال.. اعلُ هُبَل، اعلُ هبل..!" فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «قولوا له الله أعلى وأجل»..! قال أبو سفيان: "لنا العزى ولا عزى لكم..!" فقال رسول الله ﷺ: «قولوا

(١) يعنى ما أحدثته نساء قريش من التمثيل بقتلى المسلمين.

له : الله مولانا ولا مولى لكم..! » فقال أبو سفيان : ”يوم  
يوم بدر“! فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «قولوا له :  
لا سواء، قتلاتنا في الجنة وقتلاككم في النار»! فصلح  
أبو سفيان : ”إن موعدكم بدر للعام القابل“. فقال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم : قولوا له : «هو بيننا وبينكم موعد».

### الرسول يتعرف وجهة القوم بعد المعركة

ثم لوى أبو سفيان عنان فرسه وقفل راجعاً إلى أصحابه،  
فأراد رسول الله ﷺ أن يعرف وجهة القوم، فبعث على بن أبي  
طالب وقال له : «اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا  
يريدون.. فإن كانوا قد جَنَّبُوا الخيل وامتَطَوْا الإبل فإنهم يريدون  
مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة».  
فخرج على في آثارهم، فرآهم قد جنبوا الخيل وركبوا الإبل  
ووجهوا إلى مكة، ف جاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال صلى  
الله عليه وسلم : «والذي نفسى بيده لئن أرادوا المدينة لأسيرنَّ  
إليهم فيها، ثم لاناجزنهم».

فلما انصرف القوم أحاط أصحاب رسول الله ﷺ به يعالجون  
جراحه؛ فقام أبو عبيدة فزرع الحلقتين بأسنانه من وجه رسول  
الله ﷺ، فسقطت مع الحلقة الأولى إحدى ثناياه، وسقطت مع

الحلقة الأخرى ثنَّيته الثانية؛ فكان أبو عبيدة يعد ذلك أحسن الناس هنًا، وجاءت فاطمة في نسوة من المدينة؛ فلما رأت رسول الله ﷺ قد دَمِيَ وجهه جعلت تعانقه وتبكي، وجعلت تغسل الدم عن وجهه ثم تمسحه فلا يرقأ، فأخذت قطعة حصير فأحرقتها حتى صارت رمادًا، ثم ألصقتها على الجرح فاستمسك الدم.

### الرسول يرثي الشهداء

ثم نزل رسول الله ﷺ إلى مكان المعركة لينظر القتلى من أصحابه؛ فلما رأى عمه حمزة صريعًا قد فُعل به ما فعل. حزن عليه حزنًا شديدًا، وبلغ منه الغيظ كل مبلغ، حتى قال: «ما وقفت موقفًا أغيظُ إلى من هذا الموقف»...! ونظر إلى مصعب بن عمير وهو صريع في برده، فقال: «لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرقُّ حُلته منك، ولا أحسن لمة<sup>(١)</sup> منك؛ ثم أنت أشعث الرأس في برده»...! ثم نظر إلى القتلى جميعًا فقال: «أنا شهيد على هؤلاء.. إنه ما من جريح يجرح في الله إلا ويبعثه الله يوم القيامة يَدْمَى جُرْحُهُ؛ اللون لون الدم، والريح ريح المسك».

(١) اللمة: مجتمع شعر الرأس.

وكان حنظلة بن أبي عامر حديث عهد بعُرس؛ فلما سمع النفير خرج مبادراً إلى القتال قبل أن يغتسل، فقتل رضى الله عنه. فلما نظر إليه رسول الله قال: «إن صاحبكم لتغسله الملائكة». فسئلت امرأته في ذلك فقالت: إنه خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة.

وأمر رسول الله ﷺ أن يُدفن القتلى حيث صرَعوا، وقال: «لُفُوهم بدمائهم وجراحهم.. وانظروا أكثرهم جمعاً للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه في القبر». فكانوا يُدفنون بشيائهم ودمائهم دون أن يُغسلوا؛ وكانوا يوضعون كل اثنين وكل ثلاثة في القبر الواحد، لما كان عليه الصحابة يومئذ من الإعياء والضعف عن أن يحفروا لكل واحد قبرًا. وكان عدد القتلى نحو سبعين قتيلًا، أربعة من المهاجرين وسائرهم من الأنصار. أما قتلى المشركين فكانوا أربعة وعشرين.

### الرسول يعزى أهالى الشهداء

ولما فرغ رسول الله ﷺ من دفن أصحابه ركب فرسه وتوجه نحو المدينة، والمسلمون من حوله أكثرهم جرحى، يتحاملون على أنفسهم مما بهم من شدة الجهد، ويتلامون على ما كان منهم من خلاف لأمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ويرجون أن

يغفر الله لهم هذه الزلّة، ويتجاوز لهم عن هذه السيئة.  
ولما وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة وجد النساء عند بابها  
يبكين قتلاهن؛ فلما رأيته مقبلاً نسين ما هن فيه من الحزن،  
وأسرعن إليه ينظرن إلى سلامته؛ فلما رأيته في سلامة هانت  
عليهن المصيبة، وقالت له أم عامر الأشهلية: "كل مصيبة بعدك  
جَلَلٌ" ! وجاءت أم سعد بن معاذ تعدو نحوه وتأمله، حتى إذا  
اطمأنت على سلامته قالت: "أما إذ رأيتك سالماً فقد أشوت  
المصيبة"<sup>(١)</sup>! فعزاها رسول الله بآبائها عمرو بن معاذ، ثم قال  
لها: «يا أم سعد، أبشري! وبشري أهلكم أن قتلاهم ترافقوا  
في الجنة جميعاً!» قالت: "رضينا برسول الله! ومن يكي  
عليهم بعد هذا؟" ثم قالت: "ادعُ يا رسول الله لمن خلفوا".  
قال: «اللهم أذهبْ حزن قلوبهم، واجبُرْ مصيبتهم، وأحسن  
الخلف على من خلفوا!»!

ثم عزم رسول الله ﷺ على أصحابه من الجرحى أن يركنوا  
إلى بيوتهم ليداووا جراحهم؛ فتخلف عنه كل مجروح، وباتوا  
يوقدون النار ويتكمدون بها الجراح. ومضى صلى الله عليه وسلم  
حتى جاء بيته، فأنزل عن فرسه إلا نَحْملاً؛ ثم مشى يتحامل  
على السعدين - سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ - حتى دخل

(١) أشوت المصيبة: هانت.

بيته. فلما أُذِنَ لبلال لصلاة المغرب، خرج على مثل تلك الحال يتوكأ على السعديين، فصلى ثم عاد إلى بيته.

وبات وجوه الأوس والخزرج على بابه في المسجد يحرسونه، مخافة أن تُكْرَ قريش وهم غافلون.

وأذِنَ رسول الله ﷺ في البكاء على القتلى، لما في ذَرْفِ الدموع من التنفيس عن القلب، والتفريج من لوعة الحزن؛ ولكنه نهى عن نتف الشعور، وشمس الوجوه، وشق الجيوب، ونياحة الجاهلية.